إنتِقَاد مَدرَسَة الزَوجَات

أشخاص المسرحية

أُوراني : ابنة عم اليز
ايليز : ابنة عم اوراني
كليمان : صديقة اوراني وايليز
كالوبان : خادم.
المركيز / **دُورانت** : أو الفارس.
ليزيداس : شاعر.

الأحداث تجري في باريس في منزل اوراني

فصل واحد

المشهد الأول

أوراني : هل جاء أحد ليزوركِ، يا ابنة عمي ؟

إيليز : لا أحد بتاتاً.

أوراني : حقاً، يدهشني أن نبقى اليوم كلتانا وحيدتين.

إيليز : هذا يدهشني أنا ايضاً. لاننا لم نتعوّد ذلك. ومنزلك، لله الحمد، ملجأ طبيعي لجميع تنابل البلاط الملكي.

أوراني : في الحقيقة، فترة ما بعد الغداء، تبدو لي طويلة جداً.

إيليز : أما أنا فوجدتها قصيرة جداً.

أوراني : وهذا عائد الى ان المثقّفين، يا ابنة عمي، يحبّون الوحدة والعزلة.

إيليز : لا أُنكر أني اميل الى معاشرة الأصحاب.

إيليز : وانا ايضاً أحبّها. لكني افضّل أن اختار جلسائي. لأن معظم الزيارات السخيفة تجعلك تمجّينها وتتحاشينها ·لتلوذي بالاختلاء بنفسك.

أوراني : هذا نوع من اللياقة المبالغة التي تدفعك الى معاشرة خيرة الناس فقط.

إيليز : غير أن المسايرة تدعوك الى تحمّل كل الناس من جميع الفئات بلا مبالاة.

أوراني : في الحقيقة، انا اتذوّق الاحاديث المعقولة ولا اتسلّى بسماع ما هو مبتذل بوجه الاجمال.

إيليز : الابتذال لا يصل دائماً الى حدّ الازعاج. وأغلب من يصدر عنهم يُفقد حديثهم كل طرافة منذ الزيارة الثانية. وعلى ذكر المبتذلين، ألّا تفضلين ان تبتعدي مثلاً عن صاحبك المركيز المملّ ؟ هل تظنّين أني قادرة على تحمّل ما يردّده باستمرار من سماجته التي ليس لها حدود ؟

أوراني : لا تنسَيْ ان حديثه رائج هذه الأيام، ويتواصل التنكيت حوله في البلاط بدون انقطاع.

إيليز : بئس من يمارسون السخرية ويجتهدون طوال النهار ان يردّدوا هذه اللهجة الغامضة. ان افضل الأحاديث التي تدور في قصر اللوفر هي من نمط المداعبات الموحلة التي يتجاذب اطرافها جماعة سوق الخضار واللّحامين وساحة موبار حيث يلتئم المشبوهون وَذَوُو الاخلاق المنحطّة. أمّا أحلى مزاح يدور بين أهل القصر ويسوغ للانسان المثقّف ان يتباهى به فهو قول الرجل : « يا سيدتي، انتِ في الساحة الملكية، وجميع الناس يتطلّعون اليكِ عن بعد ثلاثة أميال من باريس، وكلّ منهم يراكِ بعين الرضى والتقدير ». لأن قرية « الرضوان » لا تبعد اكثر من ثلاثة أميال عن هذا المكان. أولا تجدين في ذلك كياسة وخفّة روح ؟ أولا يحقّ لمحبّذي هذه اللقاءات أن يفاخروا بها ؟

أوراني : الغالبية الساحقة لا تنظر الى هذه الوقائع كأمور طليّة المغزى. ومعظم الذين يقلّدون هذه اللهجة يعرفون جيداً انها بليدة سخيفة.

إيليز : بئس ترديد مثل هذه الحماقات التي تعتبر نوعاً من المزاح السمج. ولو كنت حَكَماً، لما وجدت عذراً لمروجيه ومتذوّقيه، بل كنت قسوت في ادانتي على محبّذي هذه التفاهات والترهات.

أوراني : دعينا من هذا الموضوع الذي يثير إشمئزازك. ولنتساءل لماذا سيتأخّر دورانْت هذا المساء في المجيء ليتناول معنا طعام العشاء ؟

إيليز : ربما نسي إرتباطه بهذا الموعد و ...

المشهد الثاني

كالوبان واوراني وايليز.

كالوبان : ها هيذا كلامين، يا سيدتي، قد أتت لتراكِ.
أوراني : ما هذه الزيارة الغريبة ؟ يا الهي.
إيليز : انتِ تشكين الوحدة. وها قد أرسلت لكِ السماء من يسلّيكِ.
أوراني : عجّل، يا كالوبان، وقل لها اني لست هنا.
كالوبان : لقد قيل لها أنك موجودة في البيت.
أوراني : ومن قال لها هذه البلاهة ؟
كالوبان : انا، يا سيدتي.
أوراني : تبّاً لك من متسرّع. سأعلّمك كيف تجيب من تلقاء ذاتك في المستقبل بدون استشارتي.
كالوبان : سأذهب واعلمها بأنك قد خرجتِ.
أوراني : قف عندك، يا أبله، ودعها تصعد، بما أنك سمحت لنفسك بارتكاب هذه الحماقة.
كالوبان : هي لا تزال في الشارع تخاطب أحد الرجال.
أوراني : كم تضايقني هذه الزيارة الآن، يا ابنة عمي.
إيليز : لا أنكر أن هذه السيدة ركيكة بطبيعتها. وأنا لم أتحمّل يوماً وجودها بصحبتي. لأنها فعلاً غريبة الأطوار، وأحاديثها التافهة بعيدة كل البعد عن المنطق السليم.
أوراني : انت تجورين عليها قليلاً بوصفها هكذا.
إيليز : لا، لا. هي تستحقّ ما نعتّها به. وإذا أردت أن تنصفيها، فأي إطراء توجهينه اليها ؟ هل يمكنك أن لا تصفيها بالمتفلسفة في أسفل معاني هذه الكلمة ؟
أوراني : مع ذلك، هي غير بعيدة عن هذه النقيصة الذميمة.
إيليز : هذا صحيح. هي تستحق هذه التسمية بدون أن تدرك مدى فحواها. صدّقيني، انها متفلسفة من رأسها الى أخمص قدميها. وهي بارعة في التصنّع

بما تبديه من حركاتها وهزّ ردفيها وكتفيها ورأسها كأنها محشوّة نوابض لا تدعها تهدأ لحظة واحدة. وصوتها بنوع خاص يعلو وينخفض، وشفتاها تستديران وتنفرجان باستمرار نظير عينيها اللتان لا تنفكّان تجحظان وتغمزان وتغمضان وتنفتحان ...

أوراني : مهلاً، مهلاً، لئلا تصل فجأة وتسمع...

إيليز : لا، لا، لن تصعد بسرعة. انا لا أزال اتذكّر ليلة التقائها بصديقنا دامون، والصفات التي وسمتها بها من جرّاء ما لاحظناه عليها من حركاتها الكثيرة بوجه عام. أنتِ تعرفين الرجل جيداً وعدم اكتراثه بمبادلة الحديث. فلقد دعته الى تناول طعام العشاء على مائدتها باعتباره صاحب نكتة، ولم تلاحظ عليه ابداً إنه بدا سخيفاً بين جماعة الأشخاص المنكّبين عليه أمامها كأنه مخلوق عجيب يريد أن لا يشبه احداً سواه من البشر. وقد ظن الجميع أنه مدعوّ ليسلي الحاضرين بفكاهاته نظراً الى ما امتاز به من الكلام اللبق والتعليقات المترجلة على كل ما يقال اثناء السهرة والشروحات المفصّلة التي يستفيض فيها حيال كل موضوع يثار اثناء وجوده. غير أنه خيّب أملهم بسكوته الى حد جعل السيدة تبدي ارتباكها ازاء كل ما قدمته من تعريف عن شخصه الفريد.

أوراني : أصمتي. ها أنا اراها قد وصلت الى باب الغرفة.

إيليز : لي كلمة أخرى أقولها. كم أودّ أن اراها قد اقترنت بالمركيز الذي تكلّمنا عنه. فالجمع بينهما سينجم عنه حقاً ضمّ المتفلسفة الى صاحب الحديث المبتذَل.

المشهد الثالث

كلامين وأوراني وإيليز وكالوبان.

أوراني : حقاً، فات الوقت ...

كلامين : ارجوكِ ان تقدّمي لي مقعداً لأرتاح عليه.

أوراني (**لكالوبان**) : هيّا اجلب مقعداً بسرعة للسيدة.

كلامين : يا إلهي.
أوراني : ما بكِ ؟
كلامين : لم أعد أقوى على الوقوف.
أوراني : ماذا دهاكِ ؟
كلامين : قلبي يخفق بشدّة.
أوراني : هل زاد ضغط دمك في هذه الآونة الأخيرة ؟
كلامين : كلّا.
أوراني : هلّا فككْتِ ازرار ردائك لتسهيل تنفّسك.
كلامين: لا، لا لزومَ لذلك.
أوراني : اذاً بماذا تشعرين ؟ ومنذ متى تتضايقين هكذا ؟
كلامين : منذ أكثر من ثلاث ساعات، حين كنت في القصر الملكي.
أوراني : ماذا تقولين ؟
كلامين : لقد تحمّلت كفّارة عن ذنوبي، غلاظة مسرحية « مدرسة الزوجات » التي ازعجتني جداً وسبّبت لي ضيق الصدر. ولا أعتقد أني سأتخلّص من هذه العلّة قبل مرور اسبوعين.
إيليز : هكذا تنتابنا الأمراض احياناً بدون أن نفكّر بها أو نعلم من أين انقضّت علينا.
أوراني : انا وابنة عمي لسنا ندري أي مزاج يعتمل في داخلنا. لكننا ذهبنا أمس الأوّل لمشاهدة هذه المسرحية، وعدنا منها مسرورتيْن منشّطتيْن.
كلامين : هل شاهدتماها فعلاً ؟
أوراني : نعم، وأصغينا الى كلامها من أوله الى آخره.
كلامين : أوَلم تشعرا بأي اشمئزاز، يا عزيزتي ؟
أوراني : أنا لست سريعة الانفعال، والحمدلله. ولقد وجدت ان هذه الهزلية قادرة على شفاء علل الناس بدل أن تبليهم بأي سقم يضني.
كلامين : يا إلهي. ماذا تقولين ؟ هل يستطيع شخص مثقف مثلكِ أن يفوه بمثل هذا التصريح ؟ هل يتسنى لإنسان خبير واسع الاطلاع نظيرك أن يخرج عن المعقول ويحبّذ هذه المهزلة السخيفة ؟ وهل يجوز لفكر واسع يتوق الى

حلو النكات أن يبتهج بسماعها والتلذّذ بسماجتها ؟ وبمعنى آخر هل يسوغ لمثقفٍ متلهّف الى المزاح الفطن أن يصمّ اذنيه بالاصغاء الى بلاهة الهزليات التافهة ؟ من جهتي انا لم أجد ذرة من الفطنة في كل عباراتها وحكاياتها البذيئة. وما بلاهة السؤال عمّا « اذا كان الاطفال يأتون الى هذه الدنيا عن طريق الأُذن » إلا سخافة ممقوتة، وقصة « الحلوى الغارقة بالزبدة » قد ذهبت بشهيتي، ونبذة «الحساء » جعلتني اتقيّأ من القرف.

إيليز : يا الهي. كم أنت موفّقة بإيراد كل هذه الأمثلة. لقد ظننت ان مغازي المسرحية جيدة. لكنني أرى، يا سيدتي، ان لديك فصاحة بليغة تقلب الأمور بشكل مُقْنِع، وتستميلين محدّثك الى رأيك، ولو كان من أعند الرافضين.

أوراني : أمّا أنا فلا أساير أحداً. ولكي أبدي فكرتي بصراحة، أعلن أن مؤلف هذه المسرحية بلغ ذروة النجاح بين سائر مسرحياته.

كلامين : أنا أشفق عليك، وأنت تتكلمين هكذا، ولا يسعني أن أتحمّل منك هذا التقصير في التمييز بين الغثّ والثمين. ولا أفهم كيف يمكنك أن ترضَيْ عن تمثيلية كهذه تزرع قلة الحياء في الأذهان وتلوّث المخيلة بأدران البذاءة والنذالة أحياناً.

إيليز : وأنا من جهتي استغرب منك هذا الحكم الجائر، يا سيدتي. انك تبرهنين عن كونك لا تتمتعين بحسٍّ مرهف في النقد، كما تتوهمين وانا اشفق ايضاً على صاحبنا موليار لتحدثك عنه كأنه من ألدّ أخصامك.

كلامين : الاجدر بك أن تتراجعي عن حكمك المغلوط ؟ لعلّ تغيير رأيك في هذه الهزليّة التي اعجبتكِ تبدّل ما علق في عقول الناس مما تخصّينها به من إطراء.

أوراني : في الحقيقة، لا أرى ما جعلك تعتبرين انها تتضمّن ما يخدّش براءة الحياء.

كلامين : يا للأسف. كل ما فيها يناقض معالم الفضيلة. وعندي ان المرأة الشريفة لا يسعها إلّا أن تحمرّ خجلاً من تعابيرها السافلة التي لا تعدو كونها بؤرة قذارة وسفاهة.

أوراني : ارى أن للسفاهة في مفهومك معاني خاصة لا يدركها سواكِ من

الأذْعياء. فأنا لا أجد فيها شيئاً ممّا تتوهّمينه وتشيرين اليه.

كلامين : لأنك حتماً لا تريدين أن تبصري الحقيقة على جليتها، ولأن كل هذه الأقذار التي تشمئزين منها تبدو، والحمدلله، كأنها متوارية عن الأبصار لا تحتاج الى ستر قياحتها. ما دامت روائحها الخانقة لا تحتاج في عرفك الى التبديد، رغم أن حاسّة الشمّ الأكثر زكماً تخشى أن تتنشّق زخمها الكريه.

إيليز : أإلى هذا الحدّ ؟

كلامين : نعم، إن لم يكن الأمر أدهى.

أوراني : على كل حال، أودّ أن تسترعي انتباهي الى واحدة مما تسمينها قذارات.

كلامين : يؤسفني ان تكوني قد اصبحت بحاجة الى من يدلك على البشاعة.

أوراني : أجل، أودّ أن تدلّيني على مقطع واحد فقط أزعجك الى هذا الحدّ.

كلامين : وهل هناك أسوأ من مشهد الفتاة أغني عندما افصحت عمّا علّموها اياه من اقوال خسيسة.

أوراني : واين القذارة في هذا الأمر ؟

كلامين : أحقاً لا ترينها ؟

أوراني : ارجوك أن تشرحي لي ما تستغربينه ؟

كلامين : تبّاً لك من غبيّة.

أوراني : كيف تجرؤين على نعتي هكذا ؟

كلامين : لم يبقَ لديّ طاقة على الاحتمال.

أوراني : انا لا أجد في كل هذا أيّة إساءة.

كلامين : هذا شأنك. وانا لست من رأيك.

أوراني : بل العكس هو الصحيح، على ما ارى بوضوح. فأنا أنظر الى الأمور كما تُعرَض امام عينيّ ولا أقلبها الى ما يجب ان لا نبصره فيها لأنه غير الواقع.

كلامين : اين شهامة المرأة ؟...

أوراني : شهامة المرأة لا تكمن في الحركات المصطنعة. والمصيبة هي ان الإنسان الطائش يشاء أحياناً ان يفوق العقلاء رصانةً ورجاحة عقل. وهنا يكمن الشطط الذي ما بعده شطط. وانا لا ارى خطأً أفدح من البحث عن الشرف

حيث لا تدعو الحاجة الى وجوده. فترُمَى الكلمات البريئة بأحطّ النعوت والتجريح، ثم التلميح الى أكثر الأمور براءة، كأنها أقبح السفالات. صدّقيني، أن اللواتي يلجأن الى التصنّع والتكلّف لسن ابداً من نساء الخير والصلاح، بل بالعكس، لا بد لإدّعاءاتهن ومراوغاتهن من أن تُزعج وتُخجل أهل الرزانة والتحفّظ. فمن الهيّن اغداق الذمّ على الأمور جزافاً كما يسهل بلحظة هدم ما استغرق بنيانه آماداً طويلة. وعلى سبيل المثال، ما لاحظناه في ذلك اليوم، اثناء مشاهدتنا هذه الهزلية على المسرح من مقصورة جاورت مقصورتنا حيث لم تكفّ بعض السيدات إظهار تأثّرهنّ بالمسرحية كهزّ الرؤوس وتقطيب الحواجب واشارات الايدي، مما أثار تواتر التأفف من سلوكهنّ الغريب، من كل حدب وصوب. ولم يكن هذا الانتقاد ليُوجَّه اليهنّ لولا حركاتهنّ المصطنعة السمجة، حتى ان أحد مراقبي القاعة صرخ مندّدا بأعلى صوته : أنهن في الحقيقة يتظاهرن بعفّة آذانهن اكثر مما يخفين من تزمّت وتهتك في سائر أنحاء أجسادهنّ.

كلامين : لا بد من أن يكون الانسان أعمى ليتحمّل مثل هذه المسرحية، أو يتعامى عمّا تحويه من مباذل لا تطاق.

أوراني : على المرء ان لا يرى ما ليس له في الواقع من وجود.

كلامين : انا لا أزال على إصراري بأن المسرحية تغصّ بالقبائح المقذعة.

أوراني : وانا لا أزال غير موافقة على ما تدّعينه وتلصقينه بها من دناءة.

كلامين : غريب منك أن لا تبصري ما ورد من تجريح الفضيلة في كل ما قالته اغني خلال المقطع المشار اليه.

أوراني : لم تتلفّظ بكلمة واحدة غير لائقة. أمّا اذا شئت ان تؤوّليها على هواكِ فأنت التي تضعين القذارة حيث لا أثر لها، وليست هي، بما أنها تتكلم عن شريط من النسيج أخذه منها الشاب كتذكار.

كلامين : هو شريط اذا اردتِ أنت ان تعتبريه هكذا. ولكنك تتناسَيْن تردّدها وعدم رغبتها في الإفصاح عما أخذه الشاب منها فعلاً. وهذا يفسح المجال لأبعد الشكوك المريبة. ومهما شئتِ أن تتغاضَيْ عما قصدتْ ان تخفيه، فلن تتوصّلي الى تبرئتها من جريرتها.

إيليز : هذا صحيح. وانا لا أرى من داع الى تردّدها وتكتّمها. فهي مخطئة في موقفها هذا، ولا حاجة الى الدفاع عن نقاء براءتها.

كلامين : لا سيما وهي تصرّ على إخفاء السفالة التي تخجل من الافصاح عنها.

إيليز : كيف تنعتين تصرفها، يا سيدتي ؟

كالوبان : محاولة ستر السفالة، يا سيدتي.

إيليز : يا الهي. أين السفالة هنا ؟ وأنا لا أفهم تماماً ماذا تعنين بكلمة سفالة ؟ بينما أنا أجد طريقة تعبيرها اروع ما يمكن في مثل موقفها السليم.

كلامين : أخيراً أجدك تميلين الى رأيي.

أوراني : يا الهي. هي متحدّثة لبقة لا تفصح دائماً عما تفكّر فيه. فلا تثقي بتصريحها اذا أردتِ أن تصدّقيني.

إيليز : ما أردأك في وضع اقوالي موضع الشك، في نظر سيدتي. فاذا شاءت ان تصدّق اقوالك، يمكنك أن تتخيّلين ما يكون من أمرها. وما أتعسني اذا تبنّيتِ هذه الفكرة الخاطئة عني.

كلامين : لا، لا. أنا لا أعتمد على كلامها. وأعتقد بأنك اصدق مما تنسبه اليك من الشك في اقوالها.

إيليز : كل الحق الى جانبك، يا سيدتي، فأنا لا يسعني إلّا أن اقرّ بصدق نواياكِ، وأجدك أهلاً للثقة، واقدّر آراءك ومشاعرك وتعابيرك الأمينة في كل ما تخوضينه من مناقشات.

كلامين : في الحقيقة انا ايضاً لا أقصد إلّا الصدق في كل ما اقول.

إيليز : هذا ظاهر للعيان، يا سيدتي. وأرى تصرفاتك طبيعية بكل معنى الكلمة. فأحاديثكِ ولهجة صوتك ونظراتك وخطواتك وأعمالك ودقة وصفك جميعها تتّسم بحسن النيّة، وتستأثر بإعجاب كل الناس. فأنا ألاحظ سلوكك في ما اراه واسمعه، وأجدني مقتنعة بأنك نزيهة وبعيدة كل البعد عن التحامل على أحد في أي موضوع كان.

كلامين : هل ترومين ان تهزأي بي، يا سيدتي ؟

إيليز : معاذ الله. سامحيني، يا سيدتي، إن كنت قد أزعجتكِ.

كلامين : أنا لست مثالاً أعلى، يا سيدتي.
إيليز : بلى، يا سيدتي، بلى.
كلامين : انت تبالغين في الثناء عليّ، يا سيدتي.
إيليز : كلا، كلا، يا سيدتي. انا لا اقول سوى الحقيقة المجرّدة.
كلامين : ارجوكِ ان لا تمعني في اطرائك، يا سيدتي.
إيليز : في الواقع، أنا لا أنسب اليك نصف ما تستحقينه من مديح، يا سيدتي.
كلامين : يا الهي. لنقف عند هذا الحدّ. لأنك، اذا تابعتِ، ستورّطيني في مزيد من الإحراج. (لأوراني) : أخيراً اصبحنا اثنتَيْن نعارض ما تبدينه من رأي. صدّقيني إن قلت لك ان العناد لا يليق بمثيلاتك المثقفات.

المشهد الرابع

المركيز وكلامين وكالوبان واوراني وإيليز.

كالوبان (عند باب الغرفة) : قف مكانك، يا سيدي.
المركيز : بدون شك، انت لا تعرفني.
كالوبان : أجل، أنا أعرفك حق المعرفة. مع ذلك لن تدخل.
المركيز : لماذا تفتعل هذه الضجّة، ايها الخادم ؟
كالوبان : لا يجمل بأيٍ كان ان يدخل عنوة بدون استئذان.
المركيز : أنا أريد أن أقابل معلّمتك.
كالوبان : اقول لك أن هذا غير ممكن هكذا.
المركيز : ها هي في الغرفة.
كالوبان : صحيح انها موجودة. لكنك لن تقابلها.
أوراني : ماذا يجري هنا ؟
المركيز : خادمك الأحمق يمنعني من الدخول، يا سيدتي.
كالوبان : أنا أُبلغه أنك لست هنا، يا سيدتي. وهو يصرّ مع ذلك على الاقتحام.

أُوراني : ولماذا تقول له اني لست هنا ؟
كالوبان : في المرة السابقة وبّختني لأني قلت له أنك موجودة.
أُوراني : هذا الخادم غبي. ارجوك، يا سيدي، ان لا تصدق ما يقول، لأنه أحمق لا يدرك ما يتلفّظ به.
المركيز : ارى ذلك بوضوح، يا سيدتي. ولولا احترامي شخصك الكريم، لكنت لقّنته درساً في احترام الأشخاص المرموقين مثلي.
إيليز : ابنة عمي ممنونة من صدور هذه اللياقة عنك، يا سيدي.
اوراني (لكالوبان) : أسرع بإحضار مقعد للسيد، يا ابله.
كالوبان : ألا يرى هذا المقعد القريب منه ؟
أُوراني : أُصمت وقدّمه له.

(يدفع الخادم الصغير المقعد بخشونة ويخرج).

المركيز : لست ادري لماذا يحتقرني خادمك الصغير، يا سيدتي.
إيليز : هو مخطئ حتماً.
المركيز : اظن أن ذلك يعود ربما الى قلّة تقديره مظهري. (يضحك). ها، ها، ها.
إيليز : عندما يتقدّم في السن سيحترم بدون شك شرفاء المجتمع أمثالي.
المركيز : بماذا كنتنَّ تتحدّثن، يا سيداتي الفاضلات، عندما قاطعت كلامكنّ بدخولي.
أُوراني : عن هزلية « مدرسة الزوجات ».
المركيز : وكيف تجدْنها، يا سيداتي ؟ هل أعجبتكنَّ.
كلامين : ارجوك، يا سيدي، أن تقول لنا كيف وجدتها أنت ؟
المركيز : وقحة بكل معنى الكلمة.
كلامين : كم أنا مسرورة بهذا الجواب.
المركيز : انها أردأ تمثيلية شاهدتها حتى الآن. إذْ إني بصعوبة إهتديت الى مكان اجلس فيه بعد ان كدت اختنق من الزحام عند الباب. وكم داس المتدافعون على قدميّ. وكم اجتهدت في اعادة أشرطتي الى وضعها وترتيبها المألوف.

إيليز : هذا برهان دافع على وجوب الانتقام من هزلية « مدرسة الزوجات » كما تقول بحقّ، يا سيدي.
المركيز : ثم تُقدَّم على المسرح تمثيلية أشنع من هذه التي نتكلم عنها.
أُوراني : ها هوذا دورانْت الذي كنا ننتظره.

المشهد الخامس

دورانْت والمركيز وكلامين وايليز وأُوراني.

دُورانْت : لا تزعجوا انفسكم ولا تكفّوا عن حديثكم. فأنتم تخوضون موضوعاً لا ينقطع الناس منذ أربعة ايام عن مناقشته في جميع بيوت باريس، ولم يشاهد أحد اروع من تنوع الآراء التي أُبديت عنه في تقديره ومدحه أو الامتعاض منه وذمّه. فقد سمعت اقوالاً متضاربة في نوعية هذه الهزلية من محبّذيها ومن المنذّدين بها.
أُوراني : وهاك سيدي المركيز لا ينفكّ عن شذبها.
المركيز : هذا صحيح. فأنا قد وجدتها قبيحة الى آخر درجات البشاعة. وليس ارذل من مضمونها ومغزاها.
دُورانْت : اما أنا، يا عزيزي المركيز، فأرى ان حكمك هو القبيح الذميم.
المركيز : ما هذا القول، ايها الفارس المغوار ؟ هل افهم منك أنك تقدّر هذه المسرحية ؟
دُورانْت : اجل، انا اقدّرها حق قدرها.
المركيز : بذمّتي، أنا أؤكد لك أنها أحقر ما شاهدت.
دُورانْت : حكمك ليس مقنعاً. فلماذا، أيها المركيز، تجد هذه المهزلة كما تدينها ؟
المركيز : لماذا هي بذيئة بغيضة ؟
دُورانْت : نعم لماذا ؟
المركيز : انها بغيضة لأنها دنيئة.

دُورانْت : بعد حكمك هذا المبرم لا مجال لأي نقاش عنها. إذْ أصدرت سيادتك الحكم بشجبها. ولكن مع ذلك اسألك ان تشرح لنا ماذا دعاك من نقائصها الى اتخاذ هذا الموقف المنحرف

المركيز : انا لا أعلم تماماً لماذا. ربما لأني لم أتكلّف عناء الاصغاء الى ما قيل اثناء تمثيلها. على كل حال، أنا واثق بأني لم أشاهد مسرحية أسوأ منها. عاقبني الله إن كنت متحاملاً، وهذا دوريلاس الذي عارضت رأيه قد اقتنع بوجهة نظري، واعتبرها هو أيضاً كما رأيتها انا.

دُورانْت : حكمك سديد، وتشبّثك برأيك في محله. وها قد بيّنت لك صواب نظرتك.

المركيز : يكفي أن أشير الى قهقهات الضحك المتواصل في أرض القاعة حتى نحكم على هذه الهزلية بأنها سيئة وغير موفّقة.

دُورانْت : انت اذاً، ايها المركيز، من هؤلاء الرجال المترفّعين الذين يأبون ان يعترفوا بسلامة ذوق المشاهدين الجالسين في القاعة، ولا يقبلون ان يضحكوا اسوةً بالمتشامخين في مقصوراتهم الفخمة، ولو كان الموضوع هزلياً طريفاً يستوجب الضحك. لقد صادفت ذلك اليوم، في المسرح أحد أصدقائي وقد أظهر سخافته في تعرّضه لهذا الموضوع بالتجريح ايضاً. لأنه أصغى الى الهزلية بأقصى الانتباه وبرصانة مثالية، وكان الجميع يقهقهون ضاحكين إلّا شخصه الكريم الذي لازم العبوس وجهه المتجهّم. وكلما ازداد الحاضرون ضحكاً ازداد هو عبوساً، ونظر الى المشاهدين في القاعة نظرة هزء وازدراء. وهو لا يكفّ عن الترديد : « إحكوا، يا جماعة القاعة، اضحكوا ». وكان منظره « هزلية » اخرى، وهو مقطب الحاجبين كئيب حزين. فأصبح سخرية جميع الحاضرين الذين أعلنوا بدون استثناء أنهم لم يشاهدوا مسرحية أجمل ولا أفكه منها. وبيّنوا الفرق الشاسع بين التمثيلية التي يدفعون نصف ليرة ذهبية لمشاهدتها وبين التي يدفعون ربع هذه القيمة لمشاهدة غيرها. وهذا طبعاً عائد الى سلامة الذوق، وسداد الرأي ودقة الملاحظة والحكم على قيمة ما يُقدّم على خشبة المسرح. لا سيما ان بين أهل القاعة في المسرح أقحاح يحقّ لهم أن يصدروا أحكامهم الصائبة على أي عمل فني ويميزوا بين الغث والثمين.

لأنهم لا يتعامون عن رؤية الروائع، ولا يسعهم ان يتجاهلوا التحرك المصطنع والتبجّح السخيف ازاء التحف التي تستحّق كل تقدير وثناء.

المركيز : ها قد أصبحت، أيها الفارس، محبّذاً منصفاً تستحسن نظرة أهل القاعة. وهذا يسرني كثيراً، ولا يمكنني إلّا أن أعتبرك من المدافعين المتحمسين عن آرائهم وميولهم كصديق حميم لهم. ها، ها، ها.

دُورانْت : إضحك بقدر ما يروق لك. فأنا اعرف ان أميّز بين الذوق السليم المدرك وفورات الهوس الصادرة عن دماغ محموم كالمركيز مسْكاري. لا شيء يزعجني اكثر من هؤلاء الأشخاص الذين لا يتورّعون عن اظهار سخافتهم رغم المزايا التي يتحلّون بها، هؤلاء الذين يصرّون على التحدّث عن كل المواضيع بدون أن يتعمّقوا فيها ويذمّون ويمتدحون الامور بدون أن يفهموا جوهرها. وعندما يشاهدون لوحة زيتية مثلاً أو يستمعون الى مقطوعة موسيقية يرذلون أو يُعجبون مما ليسوا أهلاً لاستيعابه وتذوّق روعته ولا يحجمون عن تشويه الجمال وترفيع القباحة أمام العارفين والخبراء في تقييم الروائع الفنّية. ولهؤلاء المتبجحين اقول : « اصمتوا، يا سادة، واستروا عار جهلكم، فليس كل من صف الصواني اضحى حلواني ». ارجوك ايها المركيز، أن تحفظ رأيك في صدرك ولا تعرض قلة معرفتك للملأ خشية ان يفهموا حقيقتك ويبيّنوا لك مستواك.

المركيز : لماذا، ايها الفارس، تخاطبني بهذه اللهجة القاسية ؟

دُورانْت : ايها المركيز، أنا لا أقصدك شخصياً بهذا الشرح. اني أوجّه كلامي الى العديد من الناس الذين يهينون غيرهم بمثل هذه الأحكام الطائشة فأنا لا أوافق سواهم ان أفراد الشعب يتشابهون في الحقارة. فأنا لا أوافق على هذا الاسلوب الخسيس الذي يلحق الغبن بأصحاب الفكر والرأي، كما هو الحال في رفع شأن من ليس اهلاً لأي تقدير، لعلّ هؤلاء المنصّبين ذواتهم ديّانين يدركون وعن غيّهم يرعوون.

المركيز : قل لي، ايها الفارس : هل تعتبر ليزان من المثقّفين ؟

دُورانْت : أجل، بدون شك، بل هو واسع الثقافة والإطّلاع.

أُوراني : هذا أمر لا سبيل الى نكرانه.

المركيز : إسأليه رأيه في هزلية « مدرسة الزوجات » وسترين كيف سيجيبك أنها لم تعجبه.

دُورانْت : يا الهي، كم أدّت الثقافة الواسعة الى إفساد الأذواق. لأن كثرة الاضواء تُري الأشياء على غير لونها الحقيقي. وكم أدّى تفرّد البعض بآرائهم الى تحوير الأمور وازاحتها عن مجراها الطبيعي، لمجرد الافتخار باعتبارهم قادة الفكر واصحاب التوجيه.

أُوراني : هذا صحيح. وصاحبنا هذا من هذه الفئة من الناس بدون شك. لأنه يريد أن يكون الأوّل في ابداء الرأي والوحيد الذي ينتظر منه الحكم على مستوى الأعمال الأدبية. وهو يعتبر أن كل قول يخالف رأيه يرمي الى حجب الأنوار الساطعة. لذا يتّخذ موقفاً مناوئاً، لابراز حكمه ولو كان يغاير الواقع. وهو مصرّ على وجوب الأخذ برأيه في كل عمل ثقافي. وانا على يقين بأن المؤلف لو عرض عليه مسرحيته قبل أن يقدّمها للجمهور لكان أكّد له أنها أروع ما كتب حتى الآن.

المركيز : وما قولك في المركيزة أرمنْت التي تذيع في كل مجالسها أنها فظيعة، وانها شنيعة ولم تستطع إحتمال القذارات التي تحفل بها.

دُورانْت : انا اقول لك انها تستحق هذا الامتياز الذي ابرزته في سياق موضوعها، وان الكثيرين يبدون سخفاء لدى تبجحهم بأنهم شرفاء اكثر ممّا هم في الحقيقة. ومع أنها مثقّفة، فقد تبعت المثال السّيئ، وان اللواتي يفقدن بعض مواهبهنّ من جراء تقدّمهنّ في السن يحاولن استدراك ذلك بما يظهرنه من الحركات المصطنعة والتمسك بأهداب الفضائل للتعويض عما فاتهنّ من الصبا والجمال. وهؤلاء بالذات يبالغن في تصرفاتهنّ اكثر من غيرهن، فيوصلهّن تشبثهنّ بمهارة التمويه الى رؤية قباحات وقذارات لم يسبقهنّ اليها احد. وكم تمسّك البعض بأوهامهم الى حدّ تشوبه تعابير لغتنا واستعمال كلمات فارغة خلت من مفهومها، لا سيما في العبارات التي لا يوجد لها رأس ولا ذنب، وتبتعد مسافات عن معناها الأصلي.

أُوراني : لم اتصوّر قبلاً، ايها الفارس، انك بلغت هذه الدرجة من الهوس.

المركيز : لقد انتقلت، ايها الفارس، من ذمّ المسرحية، الى القدح بمن حكم عليها بأنها سيّئة.

دُورانْت : كلا ثم كلا. انا أصرّ على القول أن هذه السيدة قد أخطأت في إبداء اشمئزازها.

إيليز : مهلك، يا سيدي الفارس، ربّما هنا سيدات غيرها يرين رأيها بالذات.

دُورانْت : أعتقد أن هذا ليس رأيكَ الأكيد عن اقتناع بما شاهدت، وأنك عندما حضرت هذه المسرحية كنتَ ...

إيليز : هذا صحيح. لكني غيّرت رأيي. وهذه السيدة عرفت كيف تدعم حكمها بالبراهين المقنعة الى حدّ أنها استمالتني الى وجهة نظرها.

دورانْت (**لكلامين**) : ارجو منك المعذرة، يا سيدتي، فأنا مستعدّ لنفي كل ما صرّحت به اكراماً لشخصك الغالي، اذا كان هذا يرضيكِ.

كلامين : انا لا أريد ان تسايرني، بل أن تظل الى جانب الحق. لأني متشبّثة بقولي ان هذه الهزلية لا تستحق اي دفاع عن صلاحها وجودتها، وانا شخصيّاً لا يسعني أن أعتبرها ...

أُوراني : ها هوذا مؤلف المسرحية السيد ليزيداس. فقد جاء الى هنا لخوض الجدال القائم في موضوع تمثيليّته. فأرجوك، يا سيدي ليزيداس، أن تجلس على هذا المقعد بجوارنا لتشترك في المناقشة.

المشهد السادس

ليزيداس ودورنت والمركيز وإيليز، وأوراني وكليمين.

ليزيداس : لقد وصلت متأخراً، يا سيدتي، اذ كان عليّ ان اقرأ المسرحية في منزل حضرة المركيزة التي كلمتك عنها. وما انهال على هذه التمثيلية من اطراء ومديح اضطرني الى البقاء هناك ساعة اضافية اكثر مما كنت اتوقعه.

إيليز : لا بد من أن يكون للثناء سحر خاص في نظر المؤلف لاحتجازه هكذا.
أوراني : تفضّل اجلس، يا سيدي ليزيداس، وستقرأ مسرحيتك بعد تناولنا طعام العشاء.
ليزيداس : جميع من كانوا هناك وعدوني بمشاهدة التمثيلية، وهم على أتمّ الاستعداد للقيام بما يترتّب عليهم من واجبات لمساندتها.
أوراني : لا أشك بذلك مطلقاً. ولكني ارجوك مرة ثانية أن تتفضّل وتجلس. نحن الآن هنا للقيام بمهمّة يسرّني أن تؤديها شخصياً بعمق ودقة.
ليزيداس : اسمحي لي، يا سيدتي، بأن أَلْفت انتباهك الى أن معظم المقصورات قد حُجزت.
أوراني : هذا حسن. على كل حال، حضرت لأني بحاجة اليك والجميع هنا يخالفون رأيي.
ايليز (**لأوراني وهي تشير الى دورانْت**) : كان هذا الرجل يحبّذ مسرحيتك. لكنه حين علم بأن هذه السيدة (تشير الى كليمين) تخالفه في الرأي، انحاز اليها وأصبح لزاماً عليك ان تبحث عن نجدة من لدن سواه.
كلامين : لا، لا اريد ان يمتنع عن مجاملة السيدة ابنة عمك، وأن يدع ذهنه يعارض قلبه.
دُورانْت : اسمحي لي، يا سيدتي، أن أستجمع شجاعتي للدفاع عن نفسي.
أوراني : أوّلاً، علينا أن نعرف ما هو رأيك، يا سيدي ليزيداس.
ليزيداس : في أي موضوع، يا سيدتي ؟
أوراني : في موضوع « مدرسة الزوجات ».
ليزيداس : انه جيد جداً.
دُورانْت : وماذا يعني لك ما ورد فيها إجمالاً ؟
ليزيداس : لا شيء اقوله بنوع خاص في هذا المجال. وأنتم تعلمون أن علينا، نحن المؤلفين أن نتبادل المناقشة في موضوع مسرحياتنا بجدّ ونزاهة.
دُورانْت : والآن، ما رأيك بهذه الهزلية ؟
ليزيداس : رأيي أنا ؟

أوراني : أجل. قل لنا، من فضلك، ما هو رأيك انت المعروف بنزاهتك وحيادك.

دُورانْت : رأيك الذي نقدّره ونحترمه.

ليزيداس : طبعاً، لماذا لا أبديه ؟ أوليست أروع مسرحية في الدنيا ؟

دُورانْت : ها، ها. أنت عفريت سيّئ النيّة، يا سيدي ليزيداس. لأنك لا تفصح بصراحة عن رأيك الصادق.

ليزيداس : أعتذر اذاً عن قول أية كلمة.

دُورانْت : يا الهي. انا أعرفك جيداً. فلا تحاول أن تحجب عنّا رأيك.

ليزيداس : رأيي أنا، يا سيدي ؟

دُورانْت : ألاحظ أنك تُثني على هذه المسرحية من قبيل اللياقة والكياسة فقط. لأنك في سرّك لا بد من أن تجدها رديئة كما هو حال الكثيرين ممّن شاهدوها.

ليزيداس : ها، ها.

دُورانْت : إعترفْ بأن هذه الهزلية عمل مُبتَذَل لا يستحق الذكر.

ليزيداس : انا أقرّ بأنها لم تنل تأييد العارفين بأصول الفنّ.

المركيز : الآن سمعت الحقيقة، ايها الفارس، وقبضت ثمن تنكيتك. ها، ها، ها.

دُورانْت : عليك أن ترفع رأسك، ايها المركيز. فقد أصبت الهدف بعينه.

المركيز : أرأيت كيف نستميل العلماء الى ناحيتنا.

دُورانْت : هذا صحيح. ولحكم السيد ليزيداس وزن لا يستهان به. وهو يودّ أن أسلّم برأيه. وبما أن لديّ الجرأة الكافية للدفاع عن نفسي (يشير الى كلامين) إزاء إعتراض هذه السيدة على ميولي، لذا لن يرى غضاضة في محاربة مشاربه الشخصية ذاتها.

إيليز : هل اصبح الجميع ضدّك، من هذه السيدة الى حضرة المركيز، الى السيد ليزيداس، وأنت لا تزال مصمّماً على مقاومتهم جميعاً ؟ تبّاً لك. هذا غير مأنوس من شخص مدرك نظيرك.

كلامين : هذا الأمر حقاً يضايقني، لا سيما عندما أجد أشخاصاً ممتازين

يصرّون على الدفاع عن حماقات هذه المسرحية.

المركيز : صدّقيني يا سيدتي، انها سيئة من مطلعها الى خاتمتها.

دُورانْت : هذا لا يستبعد قوله، ايها المركيز. فلا أسهل من الوصول الى النتيجة الحاسمة كما جرى الآن. ولا ارى ان هناك ما يناقض صواب قرارك السديد.

المركيز : بذمّتي، أؤكد لكم أن سائر المسرحيّين الذين شاهدوا هذه التمثيلية لم يوفروا تنديداً إلّا رشقوها به.

دُورانْت : لم يعد لي من كلام أقوله. فالحق الى جانبك، ايها المركيز بما ان سائر المسرحيّين يَصفونها بأحطّ النعوت، فما عليّ إلّا أن اصدّقهم وانحاز الى رأيهم. لأنهم جميعاً اشخاص منوّرون يتكلمون بدون أن يكون لهم اي غرض من وراء ذلك. أجل لم يعد لي من كلام اقوله. وهكذا أُسلّم بصواب رأيكم السديد.

كلامين : إن سلّمت أو لم تسلّم، انا واثقة بأنك لن تتمكّن من إقناعي بوجوب تحمّلي البذاءات والقذارات التي تعجّ بها هذه التمثيلية. ولا القبول بالذمّ والتحقير الذي توجّهه الى النساء بوجه عامّ.

أُوراني : انا لا يسعني أن أنفعل ولا أن أحفل بكل ما يقال في هذه المسرحية. لأن هذا النوع من الذم ينهال رأساً على الاخلاق ولا يلحق بالأشخاص المقصودين إلا انعكاساً بصورة غير مباشرة. فلا نقبل أن ينوبنا اي نقد بشكل من الأشكال. وكل ما يدور في المسرحيات من هجوم علينا، يجب أن لا نقابله باستياء ونغضب من جرائه على كل الناس. لأننا مدعوّون الى عدم رؤية نقائص الغير في ذواتنا، وإلّا انتقصنا من صفاتنا ومزايانا وحملنا سوانا على الظن بأن في طباعنا ما ليس له في الحقيقة من وجود ابداً.

كلامين : انا لا أتكلم عن هذه النقائض بالنسبة إلى ما قد ينعكس عليّ. لأنني واثقة ببعدي كل البعد عن أن أشبه إحدى هؤلاء الزوجات اللواتي دار الكلام عليهن فيها.

إيليز : بدون شك، يا سيدتي، لا أحد يبحث عن شخصك بين نماذج تلك النساء المبتذلة. لأنك لا تنتمين اليها بتاتاً.

اوراني (لكلامين) : لذلك أنا لم أقلْ، يا سيدتي، اية عبارة تمسّكِ بالهجاء الذي طال اشخاص هذه المسرحية وقد ظلّوا ضمن نطاق العموميات.

كلامين : لا شك عندي في ذلك، يا سيدتي. والآن لننتقلْ الى فصل آخر. انا لا أعرف كيف تتقبّلين الاهانات الموجّهة الى جنسنا اللطيف في بعض مقاطع المسرحية. من جهتي، أنا أعترف لك بأن غضبي الهائل لا حدّ له بالنسبة الى المؤلف الذي دعانا أغبياء.

أُوراني : ألّا ترين ان المتكلّمة كانت بلهاء حمقاء لا تعرف ماذا تقول ؟

دُورانْت : ثم ألا تعرفين أن لا مفعول لإهانة العشاق، كما أن ضرب الحبيب حلو كالزبيب، حسبما يقال ؟ وأن هناك عشّاقاً يثورون لأدنى مشكلة، كما أن هناك محبّين يتحمّلون بصبر ولذة كل ما يصدر عن الحبيب من مساوئ ؟ ففي هذا المجال نجد أغرب الكلمات تتخذ معاني متباينة متناقضة احياناً، تدل في أغلب الحالات على التحبّب والتودّد رغم غلاظة مدلولها، وتنزل كالعسل على قلوب المحبين.

إيليز : قلْ ما تشاء، فأنا لن أقوى على تحمّل مواقف « الحساء ــ والحلوى الغارقة بالزبدة » التي تحدّثت السيدة عنها منذ هنيهة.

المركيز : اجل موقف « الحلوى الغارقة بالزبدة » الذي أبديت عنه ملاحظتي. كم أنا مدين لسيدتي على تذكيرها ايّاي بهذا الموقف ذاته. هل في مقاطعة النورْمَنْدي تفّاح يكفي لإعداد هذه « الحلوى الغارقة بالزبدة » ؟ أجل « الحلوى الغارقة بالزبدة » ؟

دُورانْت : وماذا تقصد من ترديد ذكر هذه الحلوى ؟

المركيز : لا شيء غير الحلوى الغارقة في الزبدة بمعناها المعروف، ايها الفارس.

دُورانْت : لا بد من أن تقصد بها أمراً آخر.

المركيز : لا شيء ابداً غير الحلوى ...

دُورانْت : برهن لنا على صحة قولك.

المركيز : الحلوى الغارقة في الزبدة لا تعني سوى هذا التعبير الصريح.

أُوراني : لا بد من تفسير فكرته، على ما أرى.

المركيز : أقول الحلوى « الغارقة في الزبدة » يا سيدتي، ولا أعني غير الحلوى فقط.

أوراني : وماذا تقصد من ترديد ذكرها بشكل غير مألوف ؟

المركيز : أؤكد لك أني لا أعني سوى الحلوى بحدّ ذاتها.

أوراني : اذاً لا شرح لديك.

إيليز : سيدي المركيز يعرف ماذا يقول. وهو قد أفحمكم جميعاً بأسلوبه العذب الرقيق. والآن أسأل السيد ليزيداس أن يكمل النقاش، وأن يختمه بطريقة مرضية.

ليزيداس : ليس من عادتي أن أنهال باللوم على أحد، وأنا سموح للغاية في ما يخصّ تآليف سواي. مع ذلك بدون أن أقصد إزعاج صديقي، حضرة الفارس الذي يشهد بمقدرة المؤلف، لا بدّ لي من الإقرار بأن هذا النوع من الهزليات ليس منزّهاً عن الأخطاء مطلقاً. وان هناك فَرْقاً كبيراً بين التافه والرائع من المسرحيات الرصينة. مع ذلك، أرى أن كل الناس يريدون أن يدلوا بدلائهم في هذه الأيام، والكل يسعون الى ذلك. لذا نجد فراغاً مخيفاً في هذه المؤلفات عندما تطال الحماقات فيها كل أهالي باريس. ولا أكتم عنكم ان قلبي يقطر دماً عندما أَلْمس لمس اليد أن هذا الاسلوب المعيب شمل كل انحاء فرنسا.

كلامين : فعلاً، نرى أذواق الناس فاسدة بشكل مريع في هذا الموضوع بنوع خاص، لأن هذا العصر يتخبّط في الرذيلة بصورة رهيبة.

إيليز : هذا تعبير موفّق « يتخبّط في الرذيلة ». هل هو من ابتكارك، يا سيدتي ؟

كلامين : نعم.

إيليز : لا شك عندي أبداً بمقدرتك.

دُورانْت : هل تعتقد، يا سيدي ليزيداس، ان كل الفكر وكل الجمال موجودان فقط في القصائد الرصينة، وان المسرحيات الهزلية ليست إلّا تفاهات وسخافات لا تستحقّ الذكر والثناء ؟

أوراني : هذا ليس رأيي مطلقاً. لأن المأساة حقاً رائعة عندما يكون تنسيقها

موفّقاً. غير أن للهزلية مذاقاً خاصّاً وسحراً جذّاباً، وأعتقد أن كلًّا منها ليس اسهل ولا أقلّ قيمة من سواها بين الوان المسرحيات.

دُورانْت : بدون شك، يا سيدتي، لا سيما عندما تضيفين ميزةً بارزة الى مصاعب الهزلية ربما تبلغين الحدّ الأقصى من التعبير. اذ أجد من الأسهل ان تتقبّل دافع العواطف السامية، وأن نرفض حجّة الحظ العاثر، ونتهم المصير البائس ونبخس حقّ التفوّق، من ان نلج الى صلب سخافة الانسان الحقير، ونحصر نقائص البشر جميعها في موضوع المسرحية. عندما ترسمين صور الأبطال تبتكرين ما تشائين من المآثر، لأن هذه الرسوم التي تُبتدع عندما نكون مرتاحين لا يمكنها ان تتشابه بل تترك الخيال على سجّيته يحلّق في سماء العبقرية فيصل غالباً الى النبوغ، وهو يبحث عن جوهر الحقيقة. هكذا، عندما نحاول ان نرسم الناس لا بدّ لنا من أن نظهرهم على سجيّتهم. مع أننا في اعماقنا نبحث عن أبرز صور تشابه الواقع على علّاته. وبهذه الطريقة لا نصل الى النتيجة المنشودة. لأن رسومنا اذ ذاك لا تنطبق على إنسان جيلنا كما كنا نودّ ان نصوّره. وبكلمة وجيزة، يكفي، لكي لا يقع علينا أي لوم، ان نسمّي الأمور في المسرحيات الرصينة، بأسمائها الحقيقية، ونكتب بأسلوب واضح ينمّ عن ذوق سليم ونهج صحيح. لكن هذا لا يكفي اذ لا بدّ لنا من أن نُدخل المزاح والمرح بنوع أخص في صلب الهزليات، لأن التوصّل الى اضحاك المشاهدين المدركين المنزّهين فنّ قائم بذاته.

كلامين : اعتقد أني من هؤلاء المدركين المنزّهين. مع ذلك، لم أجد كلمة واحدة تستدعي الضحك الفكاهي في كل ما رأيته من هذه الهزلية.

المركيز : وانا لم أجد ما ذهبت خصّيصاً لأجله.

دُورانْت : من ناحيتك، ايها المركيز، لا أستغرب عدم عثورك على ما تبحث عنه في أعماق كيانك من عاصفة التهريج الرخيص.

ليزيداس : في الواقع، يا سيدي، ان ما تلاقيه اليوم، لا يساوي كثيراً، وجميع السخريات اضحت تافهة لا تستدعي حتى الابتسام.

دُورانْت : اما البلاط الملكي فلم يكن من رأيك في أي شكل من الأشكال.

ليزيداس : البلاط، يا سيدي ...

دُورانْت : أكمِلْ، يا سيدي ليزيداس، فإني ألاحظ من قولك أن البلاط لا يدرك هذه النقاط الهامّة. وهذه هي حجتكم الدائمة أنتم معشر الكتّاب حين لا تنجح تآليفكم احياناً. فتلومون انحراف أخلاق العصر وتحامله وقلة المعرفة المتفشّية بين افراد الحاشية الملكية. ألّا اعلم، يا سيدي ليزيداس، ان لهذه الحاشية عيوناً تبصر ما يفعله غيرها، وانها تفهم خفايا الأمور وتلاحظ ادق التوريات والاستعارات والتلميحات. ولا تنسَ ان حكم هذه الحاشية بالذات هو المعوّل عليه لأنه مقياس نجاح التمثيليات وإخفاقها، اذ تعلم جيداً ان الذوق السليم هو اساس التوفيق في كل عمل ادبي، وان فنّ النجاح يدين لمن يعرف كيف يمسك بناصيته ويسخّره لأهدافه، فيحظى بإعجاب الأذكياء والبسطاء من المشاهدين ويعرف كيف يقارن بين الغث والثمين ويغرق بين البديع والسخيف بصرف النظر عن النوايا المبيّتة والتصميمات المسبقة في الحكم بالنسبة الى شتى المواضيع.

أُوراني : صحيح أنك من الذين تقع أنظارهم يومياً على مختلف الأعمال المسرحية، فاكتسبت في حقلها خبرة لا يستهان بها، وبإمكانك ان تميّز بجلاء ووضوح سخرية موفّقة في صلْب الحديث، وأخرى تأتي سمجة كرقعة في غير محلها.

دُورانْت : لا يُنكر ان في الحاشية اشخاصاً ليسوا أهلاً لأخذهم بعين الاعتبار، وأنا أول من يجابه استنتاجاتهم الغامضة المريبة. لكن علينا أن نعترف بأن معظمهم من ذوي الثقافة العالية والفطنة الخارقة ويمكنهم أن يقدّروا القرائح المبدعة والأقلام الخلّاقة في سماء العبقرية. لذا، من الظلم ان ندين طول باعهم وإدراكهم قيمة نتاج الأذهان اللامعة في كل مجال، لا سيما في الهزليات وما تتضمّنه من مهارات في فنّ إضحاك جماهير المشاهدين مما تبرزه من رقّة التعبير ونعومة التلميح وذوق رفيع في إيراد النكات وخاصة « المدهنة » وتشريح طباع اشخاصهم وتحليل عواطفهم وميولهم وافكارهم وتصرفاتهم حسب مصالحهم الذاتية ومحاربتهم كل ما ينسجم وروح الخير أو الشر الذي يكمن في أعماق كيانهم اثناء كفاحهم لنيل رضى المستمعين اليهم سواءً في مجالي النثر والشعر البليغين.

ليزيداس : لا مفرّ لنا، يا سيدي، من الإقرار بأن موليار موفّق في جميع تآليفه، كما هو ناجح في تمثيل أشخاصه على أكمل وجه. وسرّ بروزه في هذا الميدان يعود الى من يرعاه ويعطف على عمله المسرحي ويشجع كتاباته اللاذعة في بعض الأحيان. ولكن علينا أيضاً أن نعرف أنه، مع كل ما يجود به عليه جمهوره من تحبيذ وتشجيع أنه لا يخلو من نقائص ظاهرة للعيان، لأن الانسان لا يمكنه بلوغ درجة الكلمال.

أوراني : هذا حقّاً كلام غريب يصدر عنكم يا معشر الشعراء، اذ تمدجون ظواهر المسرحيات وتهجون حتى جوهر الناجحة منها وإن تسابق الجمهور الى مشاهدتها والتمتع بنكهة انتقاداتها، ولا تنبسون ببنت شفة في موضوع المسرحيات التي يقاطعها هذا الجمهور عندما لا يستسيغها. وهكذا تحتقرون بعضها وتمجدون غيرها لأسباب لا نتوصّل الى ادراك ما يحملكم على التصرف هكذا.

دُورانْت : انتِ تعرفين جيداً ان كرم الاخلاق يوجب مناصرة المنكوبين.

أوراني : على كل حال أرجوك، يا سيدي ليزيداس، ان تدلّني على النقائص التي لا أتمكّن من الاهتداء اليها.

ليزيداس : ان مَن تعمّق في مطالعة كتابات ارسطاليس وهوراسيوس بإمعان، يا سيدتي، يرى ان هذه المسرحية لا تنطبق ابداً على جميع قواعد الفن.

أوراني : أؤكد لك أني لست من المدمنين على قراءة تآليف هؤلاء الكتّاب، وأني لست من المتمرّسين بقواعد الفنّ.

دُورانْت : انت اذاً من جماعة الذين يتمسّكون بقواعدهم الخاصة، ويؤيدون الجهلة ويربكوننا كل يوم بوجهات نظرهم العرجاء. من يسمعك تتكلّمين يظن أنك تعتبرين قواعد الفن من أغمض أسرار الكون، مع أنها ليست اكثر من سلسلة ترتيبات سهلة التطبيق نظّمها الإدراك المنفتح والذوق السليم لإتّباعها في نظم مختلف أنواع الشعر، وهذا الذوق لا يزال يطبّقها اليوم كما فعل في الماضي بدون اللجوء الى مساعدة هوراسيوس أو أرسطاليس. أودّ أن أعرف ما اذا كانت أُولى قواعد المسرحيات هي العمل على نيل رضى المشاهدين والسير بهم على الدرب القويم الموصل الى هدف المؤلف في كتابة

مسرحياته. فهل تريدين أن لا يبدي الجمهور إعجابه بما يلائم مفاهيمه ورغباته وأن لا يلاقي كل منهم متعة في ابداء حكمه على ما يشاهده من خير أو شرّ، من نجاح أو اخفاق بالنسبة الى مقاييس ذوقه وادراكه ؟

أوراني : لقد لاحظت أمراً هامّاً على هؤلاء السادة المتفلسفين، ألّا وهو أنهم يبشّرون اكثر من سواهم بالقواعد، لأنهم يعرفونها اكثر من سواهم، وهم ذواتهم يكتبون الهزليات التي لا يستسيغها أحد.

دُورانْت : هذا ما يدعو، يا سيدتي، الى عدم الأخذ بما يقوم فيما بينهم من مشاحنات في غاية الغموض والابهام. لأن المسرحيات التي تحترم القواعد لا تُرضي كالتي لا تتقيّد بها، وتنال إعجاب الغالبية الساحقة من الجماهير. علينا اذاً ان ننبذ هذه المزايدات التي ترمي الى التحكّم بذوق الجمهور. علينا ان نحبّذ الهزلية حسب ما تتركه من أثر في أعماق نفوسنا وكم تهز مشاعرنا، وان لا نركن الى الحجج الواهية التي تحول دون تمتّعنا بما تدخله الى قلوبنا من بهجة وسرور.

أُوراني : عندما أشاهد هزلية أنتبه الى الأمور التي تحرّك إحساسي وعندما تعجبني لا أتساءل إن كنت مخطئة وإن كانت قواعد ارسطاليس تحرّم عليّ الضحك والاستمتاع.

دُورانْت : هذا تماماً ينطبق على من يستطيب مَرَقاً لذيذ الطعم ويريد أن يتفحّص ما إذا كان هذا المرق ينطبق على قواعد كتاب الطبّاخ الماهر الذي طهاه.

أُوراني : هذا ايضاً صحيح. وأنا أعجب بنعومة بعض الأشخاص في مسائل علينا أن نشعر بجودتها في أعماق نفوسنا.

دُورانْت : الحق الى جانبك، يا سيدتي، اذا وجدتِ مثل هذه الصفات غريبة عنّا. اذ اننا في هذا الحال نكون مضطرين الى عدم تصديق إحساسنا. وهكذا تستبدّ الأمور بمشاعرنا ولا نجرؤ ان نحكم على أية بادرة بأنها جيدة بدون اذْن من حضرات السادة الخبراء.

ليزيداس : اخيراً، يا سيدي، أرى ان كل حججك قائمة على إعجابك بهزلية « مدرسة الزوجات » ولا يهمّك بتاتاً إن كانت خاضعة للقواعد، إلّا اذا ...

دُورانْت : اسمح لي، يا سيدي، ليزيداس، بأن لا أوافقك على هذا القول. لقد أعلنت أن الفنّ المبدع غايته الأولى نيل الإعجاب. وبما أن هذه الهزلية قد أعجبت من كُتبتْ وقُدّمت لهم، لا يهمّني الباقي ابداً. لكني، مع ذلك، أؤكد لك أنها لا تخالف اية قاعدة من القواعد التي تكلّمت انت عنها. لقد قرأتها، والحمدلله، كما قرأها غيري، وأنا مستعد لأن اثبت لك ان هذه المسرحية خاضعة أكثر من سواها للأصول المعروفة والمتّبعة.

إيليز : تشجّع اذاً، يا سيدي ليزيداس، لأننا سنخسر اذا تراجعت عن رأيك.

ليزيداس : ماذا تقولين ؟ بربّك، أين المقدّمة والخاتمة والحبكة ؟ ...

دُورانْت : يا سيدي ليزيداس، انت ترهقنا بكلماتك الرنّانة. ارجوك أن لا تعرض أمامنا معلوماتك الواسعة. عليك أن تظل انساناً متواضعاً في حديثك، وان تدع جانباً لهجة آلهة الفنّ، وأن تتكلم لغة يفهمها جميع البشر. هل تظنّ ان غموض هيكلية المسرحية هي التي تخلع عليها الأبّهة والفخامة ؟ أوليس الأَوْلى بنا أن نتكلم عن شرح المسائل وبسط الأحداث واستخلاص العِبَر ؟

ليزيداس : لقد ذكرت أقسام التمثيلية كما هو مصطلح عليها. لكن، بما أن آذاننا لم تتعود سماع هذه التسميات، سأعددها لك بطريقة أخرى، وارجوك أن تردّ إيجابيّاً على ثلاث أو أربع نقاط سأبسطها الآن أمامك. هل يمكن قبول مسرحية يخالف موضوعها عنوانها كهزلية أو غيرها ؟ اذ ان الاسم الشعري في كل مأساة يشتقّ من كلمة مصطلح عليها تدل على نوعية العمل لتبرز طبيعة هذا الشعر في مستوى الهدف المبيّن في المسرحية. وفي هذه الهزلية لا وجود لأي عمل منهجي ما دام أساس احداثها يرتكز على السرد الذي تقوم به أغني او يقوم به حبيبها هوراس.

المركيز : لقد أصبت، ايها الفارس الشجاع.

كلامين : هذه بادرة هامة من الناحية الثقافية، تنحصر في التركيز على نعومة الأمور المعالجة.

ليزيداس : هل ترى في كل ما نناقشه هنا سوى مسألة ثقافية اكثر من بضع كلمات تثير ضحك جميع المشاهدين ولا سيما عبارة « مجيء الأطفال الى هذه الدنيا عن طريق الأذن » ؟

كلامين : هذا استفهام ممتاز.

إيليز : ماذا تقولين ؟

ليزيداس : هناك مشهد الخادم والخادمة داخل المنزل. ألَا تلاحظون أنه طويل مملّ ومبطّن بالمعاني الشائكة ؟

المركيز : هذا صحيح.

كلامين : طبعاً، بدون شك.

إيليز : الحق الى جانبه.

ليزيداس : ثم ألا يقدّم ارنولف امواله لهوراس بوفرة وسهولة ؟ وبما أنه الشخص السخيف في المسرحية كان من المفروض ان يقوم بدور الرجل الشهم السموح.

المركيز : حسناً. هذه ملاحظة تؤخذ بعين الاعتبار.

كلامين : بل تستحقّ الاعجاب.

إيليز : لأنها مدهشة.

ليزيداس : والموعظة القائمة على « حِكَم الزواج » ألَا تجدونها مبتذلة تخدّش حرمة أبسط قواعد الحياة الزوجية الكريمة ؟

المركيز : هذا قول سديد.

كلامين : أجل، هكذا علينا أن نتكلم جميعاً.

إيليز : لا أجد أروع من هذه المصارحة.

ليزيداس : ثم هناك السيد دي لاسوش الذي يبدو كأنه رجل مثقّف وتظهر رصانته في كثير من المواقف الحرجة. ألا تلاحظون أنه كان مهرّجاً سخيفاً في المشهد الخامس بنوع خاص، عندما شرح للفتاة أغني عنف هيامه بها إذْ يحدجها بنظراته الغريبة، ويُسمعها تنهداته المتذلّلة ويذرف امامها دموعه الكاذبة التي أثارت قهقهات جميع الحاضرين.

المركيز : لعمري، هذا منتهى الابداع.

كلامين : بل هذا هو أغرب الغرائب.

إيليز : ليحيى السيد ليزيداس.

ليزيداس : اني أُهمل مئة ناحية أخرى خوفاً من أن أبدو مملّاً.

المركيز : بذمّتي، أيها الفارس، لم تفلح في استلحاق نفسك.
دُورانْت : لا بد لنا من تفحّص القضية من جميع نواحيها.
المركيز : ها قد عثرت على الرجل الذي تبحث عنه.
دُورانْت : ربما.
المركيز : أجب، هيا أجبني بكل صراحة.
دُورانْت : وبكل طيبة خاطر، أقول أنه ...
المركيز : أرجوك أن تكمل ردّك.
دُورانْت : دعني اذاً اتصرف. اذاً ...
المركيز : وربّي، انا أتحدّاك كي توضح جوابك.
دُورانْت : طبعاً، وان لا تتوقّف عن النطق.
كلامين : أرجوك ان تصغي الى حججه الدامغة.
دُورانْت : أوّلاً، ليس صحيحاً تصريحنا بأن المسرحية برمّتها تعتمد على السرد. اذ فيها الكثير من الحركة حسب طبيعة الموضوع والنصّ. وبما أن هذا السرد موجَّه في معظمه ببراءة متناهية الى الشخص المقصود الذي يدخل هنا في اغلب المشاهد، بفوضى تسلّي الحاضرين وتأخذ في ايراد كل خبر يخصّ جميع الأبعاد، إذْ يصبح لزاماً تدارك وقوع الشر الذي يُخشى حدوثه.
أُوراني : من جهتي انا ارى جمال الموضوع في هزلية « مدرسة الزوجات » يتجلّى في المسارات المستمرّة. وهذا يبدو لي مسلّياً للغاية. لأن الرجل المثقّف الذي يدرك كل براءة حبيبته، ويظهر عداءه لمزاحمه الطائش، لا يتوصّل الى تجنّب خيبة آماله.
المركيز : هذا امر تافه، تافه جداً.
كلامين : وجوابك هزيل، هزيل للغاية.
إيليز : وحججه باهتة غير مقبولة بتاتاً.
دُورانْت : امّا موضوع « مجيء الأطفال عن طريق الأُذُن »، فلا ينال الاعجاب إلّا بعد تعليق ارنولف عليه. ولم يقصد المؤلف ان يلقي هنا كلمة مرضية بل أن يبيّن طبع العاشق ويرسم بذاءته بصورة أوضح. لأنه يورد حماقته المبتذلة على لسان أغني كأنها أروع تعبير يسرّها ابرازه بشكل غير معقول.

المركيز : هذا جواب غير ملائم وفي غير محله.
كلامين : لا يُرضي ولا يُقنع.
إيليز : لأنه لا معنى له البتّة.
دُورانْت : اما المال الذي يجود به بدون حساب، فضلاً عن رسالة حبيبته المخلصة فذلك يضفي على تصرفه ضمانة كافية بأنه مرغوب. لأن الانسان لا يسعه ان يكون جدّيّاً في موقف معيّن وسخيفاً في موقف آخر. وفي مشهد « آلان وجورجيت » داخل المنزل، وقد لعتبره البعض طويلاً يبعث على الضجر، لا شك في أن له هدفاً. وبما أن ارنولف قد ضُبط متلبّساً بجرمه أثناء سفره، ونظراً الى ثبوت براءة معشوقته، وقف طويلاً عند بابها من جرّاء رفض الخادم والخادمة فتح هذا الباب وعدم السماح له بالدخول، مع أنه هو الذي اتّخذ جميع هذه التدابير لمنع خصمه من تخطّي عتبة المنزل.
المركيز : لا قيمة لهذه الحجج الواهية.
كلامين : اجل هذه كلها أعذار هزيلة.
إيليز : تستدعي الشفقة.
دُورانْت : أمّا الخطاب الأخلاقي الذي تدعوه موعظة، فلا شكّ أنه دليل على صدوره عن رجل وقور لا يبغي تخديش أي شعور كما تشير أنت اليه. ولا شك أيضاً في أن كلمات « جحيم، وخلقين الأبالسة » تخفّف من مبالغة أرنولف إن لجأ اليها للكشف عن براءة مخاطبته. أمّا المفاجأة الغراميّة الواردة في المشهد الخامس الذي اعتبرها البعض مهينة ومضحكة للغاية، فأردّ عليها اني اريد أن أعلم إن كانت موجّهة الى العشاق بقصد ذمّهم، وإن لم يكن طبيعيّاً صدورها عن أشخاص عقلاء إتخذوها وسيلة كسواهم في مثل هذه المواقف الحرجة ؟ ...
المركيز : الأفضل لك، ايها الفارس، ان تلازم الصمت التام.
دُورانْت : حسن جداً. لماذا لا ننظر الى انفسنا ونفكّر في ما يسعنا أن نقوله عندما نقع في شرك الهوى ؟
المركيز : انا لا استطيع ان أُصغي الى ما تقوله انت فقط.
دُورانْت : استمع اليّ، اذا شئت، حتى في موضوع شقاء الهيام ...

المركيز (يدمدم) : لا، لا، لا. لا، لا، لا.

دُورانْت : ما هذا ؟

المركيز : لا، لا، لا. لا، لا، لا.

دُورانْت : لست أدري اذا ...

المركيز : لا، لا، لا. لا، لا، لا.

أُوراني : يبدو لي أنك ...

المركيز : لا، لا، لا. لا، لا، لا.

أُوراني : تجري الآن امور مسلّية في شجاركما هكذا. فأنا ارى أن المؤلف يستطيع أن يكتب هزلية صغيرة، وأن تأتي هزليته لا بأس بها في أعقاب « مدرسة الزوجات ».

دُورانْت : الحق الى جانبك.

المركيز : بذمّتي، ايها الفارس، ستقوم فيها بدور لن يكون سمجاً بالنسبة اليك.

دُورانْت : هذا صحيح، ايها المركيز.

كلامين : أمّا أنا فأتمنّى لك النجاح، على أن تعالج الموضوع كما جرى في الواقع.

إيليز : وانا اقوم بدوري بكل طيبة خاطر.

ليزيداس : وانا كذلك اظن أنني لن أرفض الدور الذي سيُسنَد اليّ.

أُوراني : بما أن السرور والرضى سيشملنا كلنا، ايها الفارس، عليك أن تكتب مذكرة بكل ما قلناه، وتقدّمها الى موليار الذي تعرفه حق المعرفة، فيطّلع هكذا على ما يترتّب عليه أن يتقيّد به في مسرحياته المقبلة.

كلامين : اظنّه لن يتخفظ، لأن ذلك لن يكون على سبيل مجاملته.

أُوراني : ابداً، ابداً. أنا أعرف مزاجه، وهو من جهته لن يقبل بأن تُنْتَقَد مسرحيّاته على هذه الصورة، لا سيما اذا كان هذا النقد مصدره المشاهدون.

دُورانْت : اجل، لكن أية عبرة سيلاقي في تعنّته ؟ انه لن يرى في اعتراضاتنا كلاماً لا عن الزواج ولا عن عرفان الجميل، ولا أرى كيف يسعنا أن نختم هذه المناقشة الحامية.

أُوراني : لا بد لنا من أن نتخيّل حادثاً مثيراً، لوضع حد لهذه الخلافات.

المشهد السابع

كالوبان وليزيداس ودورانت والمركيز وكلامين وإيليز وأوراني.

كالوبان : المائدة جاهزة، يا سيدتي.

دُورانْت : هذا ما كنا نحتاج اليه لوضع آخر لمسات الخاتمة التي نبحث عنها، ولا يمكننا أن نجد وسيلة طبيعية اكثر منها. اذ سيتسنّى لنا أن نتناقش بكل حرّيّة، وبدون أن يضطر أحدنا الى الاستسلام والتسليم بفوز خصمه. وإذا بخادم صغير يأتي ليقول لنا : ان المائدة جاهزة. فهيّا بنا ننهض، ليتناول كل منّا طعام عشائه بسلام.

أُوراني : حقاً، لا سبيل الى إنهاء انتقاد الهزلية بطريقة افضل من هذه، إذْ علينا ان نظلّ دوماً أصدقاء.

(تمّت)